كنوز الأجداد

— ١٠ —

ابن تيمية

تقي الدين احمد بن عبد الحليم الحراني

(٧٢٨)

ولد بحران يوم الاثنين سنة احدى وستين وستمائة وقدم مع والده وأهله الى دمشق وكانوا قد خرجوا من بلاد حران مهاجرين بسبب جور التتار وقدموا دمشق سنة سبع وستين فسمع الحديث من أئمته في دمشق وقيل ان شيوخه الذين سمع منهم أزيد من مائتي شيخ وسمع مسند احمد مرات ومعجم الطبراني الكبير والكتب الكبار والأجزاء وعني بالحديث وقرأ بنفسه الكثير ولازم السماع مدة سنين ونسخ وانتقى وكتب الطباق والاثبات وتعلم الخط والحساب في الكتب واشتغل بالعلوم وحفظ القرآن وأقبل على الفقه وقرأ أياماً في العربية على ابن عبد القوي ثم فهمها وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهمه وبرع في النحو وأقبل على التفسير اقبالاً كلياً حتى حاز فيه قصب السبق وأحكم أصول الفقه كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة فعجب الفضلاء من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وقوة حافظته وسرعة ادراكه .

ذاك ما قاله من ترجموا له في نشأته أما أخلاقه فقالوا انه نشأ في تصوف تام ، وعفاف وتأله ، واقتصاد في الملبس والمأكل ولم يزل على ذلك خلقاً صالحاً براً بوالديه تقياً ورعاً عابداً ناسكاً صواماً قواماً ذاكراً الله تعالى في كل أمر رجاعاً الى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا وقافاً عند حدود الله تعالى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأوامره ونواهيه آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر «فارغاً من شهوات المأكل والملبس والجماع لا لذة له في غير نشر العلم وتدريسه، عرض عليه منصب قضاء القضاة ومشيختي الشيوخ فلم يقبل» وقبل وظائف والده في التدريس وله احدى وعشرون سنة . وكان والده من كبار الحنابلة وأئمتهم ودرس هو بعده فاشتهر أمره وبعد صيته في العالم وما أتى له ثلاثون سنة حتى كان من أعظم علماء عصره بل أعظم عالم في عصره، لا تكاد نفسه تشبع من العلم ولا تروى من المطالعة ولا تملّ من الاشتغال ولا تكلّ من البحث، وقل ان يدخل في باب من أبواب العلوم الا وفتح له من ذلك الباب أبواب واستدرك أشياء في ذلك العلم على حذاق أهله .

وكان يحضر المجالس والمحافل في صغره فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار ويأتي بما يحار منه أعيان البلد . وشرع في الجمع والتأليف وله نحو سبع عشرة سنة . قال الحافظ الزملكاني : كان اذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم ان احداً لا يعرف مثله، كان الفقهاء من سائر الطوائف اذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه اهله والمنسوب اليه . وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين .

وقالوا فيه : وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه فكان يورد ما يقوله من غير توقف ولا تلعثم، وكذا كان يورد الدروس بتؤدة وصوت جهوري فصيح . وانتهت اليه الامامة في العلم والعمل والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والأناة والجلالة والمهابة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الصدق والأمانة والعفة والصيانة وحسن القصد والاخلاص والابتهال الى الله تعالى وشدة الخوف منه ودوام المراقبة له، والتمسك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالأمر والدعاء الى الله تعالى وحسن الأخلاق ونفع الخلق والاحسان اليهم . وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين ، وشجاً في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين ، واماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين ، طنت بذكره الأمصار ، وضفت بمثله الأعصار » .

وقال الذهبي انه صار من أكابر العلماء في حياة شيوخه ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون اربعة آلاف كراس وأكثر وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع ، وكان يتوقد ذكاء ، وسماعاته من الحديث كثيرة ، وشيوخه اكثر من مائتي شيخ ومعرفته بالتفسير اليها المنتهى وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه مما لا يلحق فيه ، وأما نقله للفقه ولمذاهب الصحابة والتابعين فضلاً عن مذاهب الأربعة فليس له فيه نظير ، وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا اعلم له فيه مثيلاً ، ويدري جملة صالحة من اللغة وعربيته قوية جداً وأما معرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب .

قال فان ذكر التفسير فهو حامل لوائه ، وان عدّ الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق ، وان حضر الحفاظ نطق وخرسوا ، واستزيد وأبلسوا واستغنى وأفلسوا ، وان سمي المتكلمون فهو فردهم واليه مرجعهم ، وان لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فلسفهم وبخسهم وهتك أستارهم ، وكشف عوارهم ، وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة ، وهو اعظم من أن تصفه كلمي أو تبينه اشارة قلمي .

وقال في مكان آخر : وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، وبالصحيح وبالسقيم ، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به ، فلا يبلغ احد في العصر رتبته ولا يقاربه ، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه ، واليه المنتهى في عزوه الى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه ان يقال كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ، ولكن الاحاطة لله ، غير انه يغترف فيه من بحر وغيره يغترف من السواقي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال أيضاً : كان يقضي منه العجب اذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدل ورجح وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه . قال : وما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه ولا أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه كأن السنة نصب عينيه وعلى طرف لسانه، بعبارة رشيقة وعين مفتوحة ... ومن خالطه وعرفه قد ينسبني الى التقصير فيه ومن نابذه وخالفه قد ينسبني الى التغالي فيه . وقد أُوذيت من الفريقين من أصحابه واضداده . وكان ابيض اسود الرأس واللحية قليل الشيب شعره الى شحمة أذنيه كأن عينيه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال بعيد ما بين المنكبين جهوري الصوت فصيحاً سريع القراءة تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم .. وقال تعتريه حدة في البحث وغضب تزرع له عداوة في النفوس .

كتب الذهبي الى السبكي يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية فأجابه ومن جملة الجواب : واما قول سيدي في الشيخ تقي الدين فالمملوك يتحقق كبير قدره وزخارة بحره وتوسعه في العلوم النقلية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي اكثر من ذلك وأجل مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه وجريه على سنن السلف واخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى وغرابة مثله في هذا الزمان بل من ازمان .

وقال ابن سيد الناس انه برّز في كل فن على ابناء جنسه ، ولم تر عين من رآه مثله ، ولا رأت عينه مثل نفسه .

وبدأت محنة شيخ الاسلام لما تمت ادواته وشاعت فتاويه في مسائل وجد منها حساده مدخلاً لهم فناقشوه وكفروه وبدّعوه واعتقله الولاة وغرّبوه وكان منذ سنة تسع وتسعين ظهرت شخصيته السياسية في البلاد وبدا تعويل الأمة عليه في دفع اعدائها عنها في نوبة غازان فقام باعباء الأمر بنفسه واجتمع بنائبه وجرأ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على المغول وتوجه بعد ذلك بعام الى الديار المصرية لما اشتد الأمر بالديار الشامية من المغول واستصرخ بار كان الدولة وحضهم على الجهاد ثم عاد بعد ايام الى دمشق وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك الى ورود الخبر بانصرافهم وقيامه القيام المحمود في وقعة شقحب سنة اثنتين وسبعمائة ، واجتماعه بالخليفة والسلطان وارباب الحل والعقد وتحريضهم على الجهاد ثم توجهه في آخر سنة اربع وسبعمائة لقتال الكسروانيين واستئصال شأفتهم ثم مناظراته للمخالفين في سنة خمس في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم وظهوره عليهم بالحجة والبيان ورجوعهم الى قوله طائعين مكرهين . ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكورة الى الديار المصرية في صحبة قاضي القضاة الشافعية وعقدهم له مجلس حين وصوله بحضور القضاة واكابر الدولة ثم حبسه في الجب بقلعة الجبل ومعه اخواه سنة ونصفاً ثم اخراجه بعد ذلك وعقدهم له مجلساً ظهر فيه على خصومه ثم عقدهم له مجلساً سنة سبع لكلامه في طريقة الاتحادية ثم الأمر بتسفيره الى الشام على البريد ثم الأمر برده من مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً ثم اخراجه منه وتوجهه الى الاسكندرية وجعله في برج حبس فيه ثمانية أشهر ثم توجهه الى مصر واجتماعه بالسلطان في مجلس ضم القضاة واعيان الامراء واكرامه له اكراماً عظيماً ومشاورته له في قتل بعض اعدائه وامتناع الشيخ عن ذلك ثم سكناه القاهرة ثم توجهه الى الشام ثم ملازمته بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وافتاء الخلق الى ان تكلم بمسألة الحلف بالطلاق فأشار عليه بعض القضاة بترك الافتاء بها في سنة ثماني عشرة فقبل اشارته دفعاً للفتنة ثم ورد كتاب السلطان بعد ايام بالمنع من الفتوى بها ثم عاد الشيخ الى الافتاء بهـا وقال لا يسعني كتمان العلم وبقي كذلك مدة الى ان حبسوه بالقلعة خمسة اشهر وثمانية عشر يوماً ولم يزل على عادته من الاشتغال والتعليم الى ان ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال الى قبور الأنبياء والصالحين كان أجاب به من نحو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عشرين سنة فشنعوا عليه بسبب ذلك وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة فأخليت له قاعة حسنة واقام فيها ومعه أخوه يخدمه فكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة وظهر بعض ما كتبه واشتهر وآل الأمر الى ان منع من الكتابة والمطالعة واخرجوا ما عنده من الكتب ولم يتركوا دواة ولا قلماً ولا ورقة، وكتب عقيب ذلك بفحم وكان اخراج الكتب من عنده من أعظم النقم وبقي اشهراً على ذلك وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين .

هذا مجمل ما قيل في حالة شيخ الاسلام ومع ما حاول اعداؤه ان ينغصوا عيشه دأب في كل زمن على التأليف فألف ثلثمائة مجلد وكلها في الشرع وفي حل مسائل عويصة من الدين تقرأ فيما وصلنا منها مثالاً من علمه النفيس وعمله الذي عقمت القرون ان يأتي رجل بما يماثله . كثرت تآليفه لأنه كان يؤلف من صدره ، حفظ الكتاب والسنة وما دون في شروحها وما قاله العلماء في تفسيرهما وقد ساعدته كثرة محفوظه وفيض خاطره وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه ولو لم يكن له الا منهاج السنة لكفاه على الأيام فخراً لا يبلى ففيه قليل من علمه وقوة حجته ومعرفته بالملل والنحل واذا قلنا انه لم يؤلف نظيره في الرد على المخالفين لأهل السنة لصدقنا كل منصف من اهل القبلة .

وكتاب منهاج السنة من أصح الشهادات على علو كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه وما حاول بعض اهل الأهواء من العبث به وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الاسلام وتاريخ الملل والنحل ولو ادعينا انه لم يأت عالم يعرف ما طرأ على الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة ويوماً يوماً ما قدر احد على رد دعوانا .

رد على المعتزلة وعلى الجهمية وعلى الشيعة وعلى الفلاسفة وعلى غيرهم فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعد نظره وشدة بحثه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فما كتب لامام من الأئمة في عصره وبعد عصره ان يناقضه ويرد اقواله .

وعلى كثرة ما حرص الشافعية للتفوق على هذا الحنبلي واقناع العلماء بفتاويهم وتزييف فتاويه ما كانوا معه الا كالأطفال امام الرجال ، وفي مقدمتهم المشايخ بنو السبكي ، وما كان لهم في دولة مصر والشام من السلطان . اعتقلوه في القاهرة والاسكندرية اشهراً لم تمنعه عن التأليف والتدريس والوعظ وما حالوا دون اعجاب المنصفين من العلماء به وقول الحق فيه ولا دون تقديس الأمة له يوم موته وهي التي عرفته سباقاً الى كل خير يقصد منه صلاح دنياها ودينها وكان له في انتصار دولة المماليك على التتار اليد الطولى التي لا تنكر ودل انه في السياسة كما هو في الدين امام عظيم وان الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره . وما سمع لأحد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته في احقاق الحق ونصرة سلطان الاسلام . ونسبه قوم الى انه يسعى في الامامة الكبرى فانه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه فكان ذلك مؤكداً لطول سجنه . ولم يرض يوم عقد الصلح مع التتار ان يتخلى عن الأسرى من النصارى واليهود فقال انهم ذمتنا ولا بد من ارجاعهم الى ديارهم . وكم له من مثل هذه الحسنات التي اصبحت كأنها قواعد من قواعد الشرع والسياسة لا يستغني عنها خليفة ولا سلطان .

ان استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال الى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين وفي غير ذلك من البدع التي أقروها والشريعة تنكرها انكاراً ظاهراً كما يفهم من آي الكتاب العزيز وهدي الصحابة والتابعين والعلماء العاملين واغتباطهم بما ظنوه ظفراً لهم في تلك المعركة الشديدة قد كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرين وبقيت الامة على اقرار الخرافات والبدع الى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة وكأنهم اخترعوا شريعة أخرى استمالوا بها العوام ومزجوها بالشريعة الأصلية رغم أنوف الخواص فركبوا عار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأبد ولعنوا بما بدلوا وحرفوا . هو لم يأت ببدع وهم سلموا بكل البدع . فكان العالم العامل حقاً ، وكانوا عبدَة أوهام وضلالات . أراد شرعاً نقياً من الأدران وهم تساوت عندهم النقاوة والنفاية لأنهم يقصدون بمناقشاتهم الظهور وكسب قلوب الغوغاء على أي حال .

لو عمت دعوة ابن تيمية ، ولدعوته ما يماثلها في المذاهب الاسلامية ، ولكنها عنده كانت حارة وعند غيره فاترة ، لسلم هذا الدين من تحريف المحرفين على الدهر ، ولما سمعنا أحداً في الديار الاسلامية يدعو لغير الله ، ولا ضريحاً تشد اليه الرحال بما يخالف الشرع ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى للتوحيد لا للشرك ولسلامة العقول لا للخبال والخيال .

كان ابن تيمية في النصف الثاني من عمره سراجاً وهاجاً أطفأ بعلمه وعمله شهرة أرباب المظاهر من القضاة والعلماء وكان الصدر المقدم كلما دخل في موضوع ديني أو سياسي ، وعبثاً حاول بعض الشافعية والمالكية ان يسلموه للعامة علهم يقتلونه فما استطاعوا اكثر من حجر حريته أشهراً في سجن ، وكان الملوك يحمونه من تعصب خصومه ويعرفون قدره . وكان الملك الناصر صاحب مصر يرفع من مقام ابن تيمية كثيراً وأراد أن يقتل من أفتوا بخلعه من العلماء ، وحثه على ان يفتيه في قتل بعضهم فأنكر ان ينال أحداً منهم بسوء وقال له : اذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم فقال له : انهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً . فقال الشيخ من آذاني فهو في حل ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه ، أنا لا أنتصر لنفسي ، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح . وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا . فعل هذا ابن تيمية وخصومه يقولون : يجب التضييق عليه ان لم يقتل والا فقد ثبت كفره . ونحن نقول ان هذا هو الفرق العظيم بين اخلاقه واخلاق مشاكسيه هم كانوا ممن يهتمون لدنياهم ومظاهرهم وهو كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يهتم للأخرى فقط وشتان بين المطلبين . فكان يهتم لنشر الدين والقضاء على البدع بقلبه ولسانه وقلمه وهمّتهم ان يرضى عنهم السلطان فيبقيهم في مناصبهم ويستميلوا العامة فيقبلوا أيديهم .

هو يقول لنائب قلعة دمشق في فتنة غازان : لو لم يبق فيها الا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك ان استطعت فسلمت القلعة من أذى التتار وكان يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط وكذلك كان شأنه في وقعة شقحب وكان بعد المسلمين بالنصر هذه المرة ويؤكد كلامه في ذلك حتى نصروا على عدوهم . وفي قتال الجرديين والكسروانيين ابان أيضاً عن سياسة رشيدة وأرجع بعض الناشزين من أهلها الى الاسلام .

من أهم المسائل التي حاول حساد ابن تيمية ان ينالوا بها منه مسألة شد الرحال الى قبور الصالحين وغيرهم قال ابن كثير ، إن جواب ابن تيمية في هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء الصالحين وانما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر الى مجرد زيارة القبور . وزيارة القبور من غير شد رحل اليها مسألة وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى ، والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل بل يستحبها ويندب اليها وكتبه ومناسكه تشهد بذلك ولم يتعرض الى هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا ولا قال انها معصية ولا حكى الاجماع على المنع منها ولا هو جاهل قول الرسول : « زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » .

ثار عليه مرة جماعة من الحسدة وشكوا منه انه يقيم الحدود ويعزر ويحلق الرؤوس أيضاً وتكلم هو فيمن يشكو منه ذلك وبين خطأهم . وراح مرة في ثلة من اصحابه ومعهم حجارون وأمرهم بقطع صخرة كانت بنهر قلوط تزار وينذر لها فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً . قال ابن كثير وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه فحسد على ذلك وعودي ولم يصلوا اليه بمكروه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وانما أخذوه وحبسوه بالجاه . قال ولم يزل الشيخ ملازماً لاشتغال الناس في العلوم ونشر العلم وتصنيف الكتب وافتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية . ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى اليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم . وله اختيارات كثيرة في مجلدات عديدة افتى فيها بما أدى اليه اجتهاده واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف .

رجل هذا شأنه يكفره القاضي المالكي ويحاول قتله والتعزير عند المالكية القتل ولا تشتفي نفوس بعض العلماء والسياسيين حتى ينادى بدمشق : من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله خصوصاً الحنابلة . وجمعوا الحنابلة من صالحية دمشق وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الامام الشافعي .

قال الصلاح الصفدي كان كثيراً ما ينشدني :

تموت النفوس بأوصابها ولم يدر عوّادها مابها
وما أنصفت مهجة تشتكي أذاها الى غير أحبابها

وأنشد على لسان الفقراء (جماعة الطرق) :

والله ما فقرنا اختيار وانما فقرنا اضطرار
جماعة كلنا كسالى وأكلنا ماله عيار
تسمع منا اذا اجتمعنا حقيقة كلها فشار

أبو الريحان البيروني

(٤٤٠)

معنى بيرون بالفارسية خارج والبيروني (بكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف وضم الراء وبعدها الواو في آخرها النون) نسبة الى خارج خوارزم فان بها من يكون خارج البلد ولا يكون من البلد نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بيرون منشأ ابي الريحان ومولده بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب ولا غرو فان الدر ساكن الصدف . قال السمعاني وما علمنا هذه الغرائب ولم نعرف عن منشاه وأساتيذه شيئاً وغاية ما انتهى الينا من بعض المظان انه تلميذ ابي نصر منصور بن علي بن عراق (؟) الرياضي المشهور ولعلّ هذا ممن أدرك الاربعمائة من الهجرة .

سافر البيروني في بلاد الهند أربعين سنة وزادت تصانيفه على حمل بعير رأى ياقوت فهرستها في وقف الجامع بمرو في نحو الستين ورقة بخط مكتظ وهي في النجوم والرياضيات والمنطق والحكمة والتاريخ طبع منها بعض علماء الألمان ثلاثة كتب فقط فقرأنا فيها كل مفيد . قال ياقوت انه لما صنف القانون المسعودي أجازه السلطان محمود بن سبكتكين بحمل فيل من نقده الفضي فرده الى الخزانة بعذر الاستغناء عنه ورفض العادة في الاستغناء به وكان رحمه الله مكبّاً على تحصيل العلوم منصباً الى تصنيف الكتب ، لا يكاد يفارق يده القلم ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر ، الا في يومي النيروز والمهرجان من السنة لاعداد ما تمس اليه الحاجة في المعاش . وهو أعظم رياضي قام في هذه الملة « لم يشق المحضرون غباره ولم يلحق المضمّرون المجيدون مضماره » .

دخل عليه أحد اصدقائه وهو يجود بنفسه فقال له : كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدة ؟ فقلت له اشفاقاً عليه : أفي هذه الحالة ؟ قال لي : يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألاّ يكون خيراً من ان أخليها وأنا جاهل بها . فأعدت ذلك عليه وحفظه ، وعلمني ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ .

دخل البيروني بلاد الهند مع ابن سبكتكين لما فتحها وأقام بينهم وتعلم لغتهم واقتبس علومهم وفيها الف كتابه الذي لا نظير له في حرية الفكر وانصاف المخالف في الدين والمذهب المعنون بتحقيق ما للهند من مقالة مقبولة في العقل أو مرذولة . وهو من أجل الأسفار التي وضعها علماء الاسلام في الملل والنحل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم يكد علماء هذا العصر يكتبون مثلها مجردة عن الغرض عند الكلام على المخالف ومن كتبه المطبوعة « الآثار الباقية عن القرون الخالية » وهو في النجوم والتاريخ ألفه للأمير شمس المعالي وبين فيه التواريخ التي تستعملها الامم والاختلاف في الأصول التي هي مباديها وفيه فوائد تاريخية عن ملوك اشور وبابل وكلدة والقبط واليونان والروم . قالوا وكان طيب العشرة خليعاً في الفاظه عفيفاً في أفعاله لم يأت الزمان بمثله علماً وفهماً . وله شعر مخط عن نثره كان يقوله في المناسبات وفيه بذاءة أحياناً وكان على عجمته معجباً باللغة العربية ولم يؤلف في غيرها ويقول ان الهجو بالعربية أحب اليه من المدح بالفارسية .

غاية ما عرف عن البيروني انه فارسي شغف بحب العرب وكان يعد من أئمة اللغة العربية وأدبائها يضاف ذلك الى علومه الكثيرة في الرياضيات والنجوم والتاريخ والملل والنحل . صحب الملوك فأفادهم أكثر مما استفاده منهم وكان على عزوف وزهد لا همَّ له الا تحصيل العلم وبثه في الناس واعتماده في ذلك على التأليف . ويقول العلامة بروكلمان انه كانت بينه وبين الحكيم ابن سينا مكاتبات كان من مجموعها كتابه الآثار الباقية . ولما فتحت الهند على يد محمود بن سبكتكين درس فيها العلوم اليونانية وأخذ من كنوز العلوم الهنديه .

ولم نعرف جميع أساتذة البيروني ، وخوارزم كانت في عصره دار علم كسائر العواصم الاسلامية الكبرى . والبيروني مثل للأنظار وهو كبير وسكتوا عن نشأته وأساتيذه ، وكان قبل أن بلغ الكهولة رجلاً مذكوراً بدليل انه كان من جملة رجال صاحب غزنة .

ومن تصفح كتاب الهند والآثار الباقية يدرك مكانة هذا العالم الذي لم يترجم له المترجمون بما يستحقه من التوسع ولعلهم كانوا يفضلون عليه بعض أرباب الحديث والفقه ، وهو الذي أتى أمته بجديد وخدمها فأفاد ولم يستخدمها في مظهر له ولا في طلب دنيا ، هو أحد أفراد نوابغ يعدون على الأصابع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن أولئك تعد مئات ولم يبدعوا جديداً ومعظم ما دونوه وتناقشوا فيه لو حذف من الخزائن تعد كأنها لم تفقد شيئاً . اخلص للعلم وما شغف بغيره ؛ وما طلب عن غيره بديلا .

قال البيروني : جل خطر الملوك عن المجازاة بالانتقام

ليس للملك ان يحسد الا على حسن التدبير والسياسة

الملك أقل الناس خوفاً من الفقر وأكثر الناس خطراً وقرباً الى الهلاك ، فليس له ان يبخل ويجبن فان ما قل عنده لا يكثر وما كثر لا يعدم

المنّ يبطل احسان المحسن

العاقل من استغنى بتدبير اليوم عن تدبير الغد

لا تحقر الأمر الصغير فللأمر الصغير موضع ينتفع به وللأمر الكبير موقع لا يستغنى عنه

ما اجتمعت عليه الألفة والعادة واصطلحت عليه العامة فلا تخالفه

من كفاه التأديب بالكلام لا يؤدب بالسوط والسيف

مدارسة أخلاق الحكماء والعلماء تحيي السنة الحسنة وتميت البدعة السيئة

السنن الصالحة علامات الخير والحق

ابن هندو

ابو الفرج علي بن الحسين

هو من أهل الري لا نعرف ان كان من العرب النازلين فيها أو انه من أصل فارسي وهو من رجال البلاغة كاتب شاعر قالوا كان صاحب ابوة في بلده ولسلفه نباهة بالنيابة وخدمة السلطان هناك وكان متفلسفاً قرأ كتب الأوائل على أبي الحسن الوائلي بنيسابور ثم على الحكيم أبي الخير بن الخمار . وكان احد كتاب الانشاء في ديوان عضد الدولة وقال البندنيجي الشاعر هو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من أهل الري شاهدته بجرجان في سني بضع عشرة وأربعمائة كاتباً بهـا وانه مشهور في تلك البلاد بجودة الشعر وكثرة الأدب والفضل وقال فيه صاحب يتيمة الدهر : هو مع ضربه في الآداب والعلوم بالسهام الفائزة ، وملكه رقة البلاغة والبراعة ، فرد الدهر في الشعر ، وأحد أهل الفضل في صيد المعاني الشوارد ، ونظم الفرائد في القلائد ، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب الأغراض البعيدة .

ومن تآليفه « انموذج الحكمة » و « المفتاح » في فوائد علم الطب و « الرسالة المشرقية » و « كتاب النفس » ورسائل وديوان وكتب أخر . وفي كتاب المفتاح ان متكلماً كان في جواره وصنف كتاباً في ابطال علم الطب وحث تلامذته على درسه فعرض له صداع فبعث تفسرته الى الحكيم ابي الخير فقال الحكيم ابو الخير لرسوله : قل له ضع تصنيفك في ابطال علم الطب تحت وسادتك وضع عليها رأسك فانه لا حاجة لك الى الطبيب والطب . فما عالجه واحد من الأطباء حتى اعترف ببطلان كلامه ومزق تصنيفه وتاب . ثم عالجناه وشفاه الله تبارك وتعالى .

وقال ان أحد المتكلمين في جواره عرض له خناق فعاده فقال له : ما ينفعني من طريق الطب ؟ فقلت له : ينفعك ماء الشعير الفاتر مع ماء الرمانين ورُبّ التوت وخل الجوز وماء الهندباء مع فلوس الخيارشنبر وفصد القيفال (عِرق في اليد) وغير ذلك . فقال : وما يضرني فقلت ما فيه حرارة . فقال : كيف يكون العسل المصفى والعصيدة التمرية ؟ فقلت ، نعوذ بالله ففيهما هلاكك . فقال لتلامذته : أنا اخالف رأي الأطباء عقيدة ومذهباً ، ولا غفر الله لي ان خالفت عقيدتي وأطعت طبيباً . فقمت من عنده فتناول العسل والعصيدة ومات قبل غروب الشمس .

وابن هندو كان على ما ظهر مما قاله المؤرخون فيه عالماً ممتازاً فيما غلب عليه من صنوف الآداب وقعد به الحظ فلم يظهر بالمظهر الذي كان جديراً به من الرياسات والمقامات فكان في الديوان كاتباً دون الدرجات العالية فأثر ذلك في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نفسه وحنق على الدهر والأيام . من ذلك ما حدث به البندنيجي قال كان الناس يظنون بمنوجهر بن قابوس ما كان في أبيه من الأدب والفضل ولم يكن كذلك فلما انتقل الأمر اليه قصد بما يقصد به مثله وكان لا يوصل اليه الا القليل ولا يتقبل ما يمدح به ولا يهش لشيء من هذا الجنس لتباعده عنه وكان مع هذه الحالة فروقة قليل البطش فمدحه ابن هندو بقصيدة وتأنق فيها وأنشده اياها فلم يفهمها ولم يثبه عليها فقال :

يا ويح فضلي أما في الناس من رجل يحنو عليّ أما في الأرض من ملك
لأكرمنّك يا فضلي بتركهم واستهينن بالأيام والفلك

فقيل لمنوجهر انه قد هجاك لأن لقبه كان « فلك المعالي » فطلبه ليقتله فهرب الى نيسابور وانفلت منه .

وتحدث ابو الفضل البندنيجي الشاعر قال كان بابن هندو ضرب من السوداء كان قليل القدرة على شرب النبيذ لأجل ذلك واتفق انه كان يوماً عند ابى الفتح ابن ابي علي كاتب قابوس بن وشمكير وأنا معه على عادة لنا في الاجتماع فدخل ابو علي الى الموضع ونظر الى ما كان بأيدينا من الكتب وتناشد هو وابن هندو الشعر وحضر الطعام فأكلنا وانتقلنا الى مجلس الشراب ولم يطق ابن هندو المساعدة على ذلك فكتب في رقعة كتبها اليه :

قد كفاني من المدام شميم صالحتني النهى وثاب الغريم
هي جهد العقول سمي راحاً مثل ما قيل للديغ سليم
ان تكن جنة النعيم ففيها من أذى السكر والخمار جحيم

فلما قرأها ضحك وأعفاه من الشرب . وأنشد أبو الفضل له :

قالوا اشتغل عنهم يوماً بغيرهم وخادع النفس ان النفس تنخدع
قد صيغ قلبي على مقدار حبهم فما لحب سواهم فيه متسع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وحدث ابو الفضل هذا قال : كان ابن هندو يشرب يوماً عند ابي غانم القصري ، واقتصر على أقداح يسيرة ثم أمسك فسأله الزيادة فلم يفعل وقال :

أرى الخمر ناراً والنفوس جوهراً ... فان شُربت ابدت طباع الجواهر
فلا تفضحن النفس يوماً بشربها ... اذا لم تثق منها بحسن السرائر

وله أيضاً : تعرضت للدنيا بلذة مطعم ... وزخرف موشي من اللبس رائق
أراد سفاهاً ان يموّه قبحها ... على فكر خاضت بحار الدقائق
فلا تخدعنا بالشراب فاننا ... قتلنا نهانا في طلاب الحقائق

وله : ضعت بأهل الريّ في أهلها ... ضياع حرف الراء في اللثغة
صرت بها بعد بلوغ المنى ... احمد أن تبلغ بي البلغة

وله : اذا ماعقدنا نعمة عند جاحد ... ولم نره الا جموحاً عن الشكر
رجعنا فعفينا الجميل بضده ... كذاك يجازى صاحب الشر بالشرّ

وله أيضاً : وكافر بالمعاد أمسي ... يخلبني قوله الخلوب
قال اغتنم لذة الليالي ... وعدّ عن آجل يريب
طال هواه وجاء يهذي ... طبت لعينيك يا طبيب
أأخطأ العالمون طراً ... وأنت من بينهم مصيب

وله : حللت وقاريَ في شادن ... عيون الأنام به تعقد
غدا وجهه كعبة للجمال ... ولي قلبه الحجر الاسود

وله : الا ربّ مولى غرّني من عهوده ... يمين عليها صافحتني بيمينه
أكابد منه ضد ما أستحقه ... فأصدق في ودي له ويمين هو
عجيب لأخلاق اللئام كأنهم ... عن الكرم المعجون في شيمتي نهوا

وله : يقولون لي ما بال عينك مذ رأت ... محاسن هذا الظبي أدمعها هطل
فقلت زنت عيني بطلعة وجهه ... فكان لها من صوب أدمعها غسل

وقال: قوّض خيامك من أرض تضام بها ... وجانب الذل ان الذل يجتنب
وارحل اذا كانت الأوطان منقصة ... فمندل الهند في أوطانه حطب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه أمثلة جميلة من شعره الذي حوى النكات مع السلاسة والابداع بقي ان ننقل ما أثر له من النثر فمنه : انما المرء حيث يجعل نفسه . عظّم العلم في ذاتك ، وصغر الدنيا في عينك . واخرج من سلطان شهواتك ، وكن ضعيفاً عند الهزل ، قوياً عند الجد ، ولا تلم أحداً على فعل يمكن ان يعتذر منه ، ولا ترفع شكايتك الا الى من يرى نفعه عندك حتى تكون حكيماً كاملاً . ومن كلماته : العاقل لا يكلف نفسه ما لا يطيق ، ولا يسعى فيما لا يدرك ، ولا ينظر فيما لا يعنيه ، ولا ينفق الا بقدر ما يستفيد ، ولا يلتمس الجزاء الا بقدر ما عند صاحبه من الاستطاعة .

وكانت الحكمة تظهر في شعره يشبه في ذلك المتنبي كثيراً وقد التقط حكم اليونان وجمعها في مصنف سماه « الكلم الروحانية من الحكم اليونانية » اثبت من كلمات الفلاسفة اليونانيين ما يجري مع الأمثال السوائر ، ويدخل في حاذ النوادر ، دون ما بعد من غامض الفلسفة ، ويحصل معناه بعد الكلفة ، فجمع من شواردها ما ساعد عليه الوقت واستحضره الحفظ ، ناسباً أكثره الى قائليه ، وشافياً خفيّه بما يجليه .

بدأ بحكم لأفلاطون وقد استغرقت نحو نصف المجموعة ثم ثناها بارسطاطاليس ثم سقراط ثم بمحاورات جرت بين اريجانس وسقراط ثم كلمات لاميروس فالاسكندر فباسيليوس ففيثاغورس فبقراط فجالينوس فديمستانس فزينون فديقوميس ففيلمون فنوموس فاكسانوقراطس فغورس فديمطس فديوجانس الى غيرهم من الفلاسفة غير المشهورين في أدبنا المتعارف .

فمما نقله من حكم أفلاطون : لا تصحبوا الأشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم . وقال لا تقسروا أولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم . وقال : لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده ، فان الناس لا يسألون عن مدة العمل ، وانما يسألون عن جودته . وقال : اذا اقبلت الدولة خدمت الشهوات العقول ، واذا أدبرت خدمت العقول الشهوات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال افلاطن : (لغة في افلاطون) لا تكمل خيرية الرجل حتى يكون صديقاً لمتعاديين وقال : اتقوا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع . وقال : موت الرؤساء أسهل من رئاسة السفلة . موقع الصواب من الجهال مثل موقع الجهل من العقلاء . اذا بلغ المرء من الدنيا فوق مقداره تنكرت اخلاقه للناس . لا تصحب الشرير فان طبعك يسرق منه وأنت لا تدري . وقال : لا تفارق طاعة الرأي والصبر في كل أمورك فانك ان لم تحرز الحظ الذي تبغيه كنت قد أحرزت العذر . قال المؤلف : قد أحسن الشاعر في هذا حيث يقول :

لأبلغ عذراً أو أنال رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقال موت الصالح راحة لنفسه وموت الطالح راحة للناس . قال المؤلف : قريب من هذا ما يحكى عن غير افلاطن : ابك على العاقل يوم يموت وعلى الأحمق حتى يموت . وقال : الفضيلة تجمع أهلها على المحبة والرذيلة تفرق بين أهلها بالتنافر والبغضة الا ترى ان الصادق يحب الصادق ويستنيم اليه وكذلك الثقة مع الثقة والحسن الخلق مع الحسن الخلق وترى الكاذب يبغض الكاذب والسارق يخاف السارق وكل واحد منهما حذر من مجاورة صاحبه . وقال : المصغي الى الذم شريك لقائله قال بعض الشعراء :

والسامع الذم شريك له والمطعم المأكول كالآكل

وقال : الفقير اذا تشبه بالغني كان كمن به الورم ويوهم الناس أنه سمين وهو يستر ما به من الورم . قال المؤلف : كأن ابو الطيب المتنبي لحظ هذا الكلام حيث يقول :

أعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقال ارسطوطاليس : الحكيم الصالح لا يخادع أحداً والعاقل الكامل لا يخدعه أحد . قال المؤلف : ان يكون الانسان مخدوعاً ليس بصفة محمودة لأنه يدخل في باب الغباوة وربما ظن الناس انه صفة مدح لما يسمعون من قولهم الكريم مخدوع : ومن قول الشاعر : ان الكريم اذا ما خودع انخدعا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن قول الآخر :

خادع خليفتنا عنها بمسألة ان الخليفة للسؤال ينخدع

وليس الأمر كما يظنون وانما المراد بالانخداع ههنا التكلف مع المعرفة بالخديعة . وقد صرح ابو تمام الطائي بالواجب في هذا المعنى فقال :

ليس الغبيّ بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

وقال : يا اسكندر لا يكونن لجائزتك حد فان ذلك أبسط للأمل فيك . وقال : يا اسكندر اعمر ما خرب مما أنشأه من تقدمك يعمر ما تبنيه من يعقبك وقيل لسقراط لمَ لا نرى أثر حزن فيك ؟ قال : لأني لا أملك ما أحزن عليه اذا عدمته . قال بعض الشعراء :

الم ترَ ان الدهر يهدم ما بنى ويأخذ ما أعطى ويفسد ما اسدى

فمن مره ان لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وقال اوميرس : الكذاب لا يصلح لشيء حتى يصلح الثعلب للذئب . وقال : الانسان الخير أفضل من جميع الحيوان الذي على وجه الأرض والانسان الشرير أخسُّ من جميع الحيوان الذي على وجه الأرض . وقال : اني لأعجب من الناس ان مكنهم الله من الاقتداء بالملائكة فيدعون ذلك ويميلون للاقتداء بالبهائم . قال المؤلف : عندهم ان التفلسف هو الاقتداء بالله تعالى وأن تعلم الحق وتفعل الخير .

ومن كلام ياسيليوس الملك : لا تغتر بحسن الكلام اذا كان الغرض منه ضاراً فان الذين يسمون الناس يخلطون السم بالحلاوات ، ولا يصعبن عليك الكلام الغليظ اذا كان الغرض منه نافعاً فان أكثر الأدوية الجالبة للصحة مرة بشعة .

من كلام فيثاغورس ويقال انه أول فيلسوف اجتمعت اليه التلاميذ قال لابنه : أوصيك بعشرة أشياء فاحفظها تسلم : لا تلاح حديداً ، ولا تشارب غيوراً ، ولا تساكن حسوداً ، ولا تجاور جاهلاً ، ولا تناهض من هو أقوى منك ، ولا تؤاخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مرائياً ، ولا تعامل كذاباً ، ولا تكثر مجالسة النساء ، ولا تصاحب بخيلاً .
والعاشرة هي عمدة الوصية وبها سلامة نفسك الا تستودع سرك أحداً .

من كلام ديمستانس الخطيب ، قال : يجب على من اصطنع معروفاً ان يتناساه من ساعته ويجب على من أُسدي اليه معروف ان يكون ذكره نصب عينيه .

قال المؤلف : قيل في يحيى بن الفضل :

ينسى الذي كان من معروفه أبداً الى الرجال ولا ينسى الذي يعد

من كلام ديوجانس الكلبي ، والكلبيون فرقة من الفلاسفة يستهينون بالعادات مثل ان يأكلوا في الطرقات ويلبسوا ما اتفق ويناموا حيث اتفق ولذلك شبهوا بالكلاب . رأى ديوجانس غلاماً منبوذاً اي ملقوطاً يرمي بالحجارة . فقال له : لا ترمِ فلعلك تصيب أباك وأنت لا تدري . قال المؤلف : نقل شاعر من العرب هذا المعنى فقال :

لا تهجون أسنَّ منك فربما تهجو أباك وأنت لا تدري

من كلام فندروس قال : كما ان الجسد اذا فارقته النفس فاح منه النتن في الخارج كذلك الجاهل الذي عدم الحكمة لا يخرج من فيه لفظة الا كانت أذى ونتناً على سامعها وكما ان الجسد لا يشعر بما يظهر منه من النتن لأنه ميت كذلك لا يحس الجاهل بنتن كلامه لأنه ميت التمييز .

قيل لسطيحوس ان اوميروس يكذب كثيراً فقال : الذي يُطلب من الشاعر انما هو الكلام الحسن اللذيذ فاما الصدق فانما يطلب من الأنبياء عليهم السلام .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net